وما يعطي للانسان اللبناني ثباته : الجغرافيا الفريدة وموقع لبنان الجغرافي الذي هيأته العوامل الداخلية والخارجية « ليكون وطنا لا كالاوطان » · ان الجغرافيا والتاريخ يمتزجان في الايديولوجية اللبنانية لدرجة ان الفصل بينهما يصبح مستحيلا · ومن امتزاجهما هذا تنبثق الروح اللبنانية المحددة باختلافها عن اي من النزعات الاخرى عند الشعوب ·

« هذا الجبل الذي يشكل ملاذا للاقليات المضطهدة » على حد تعبير شيحا ، كان لا بد له ان يجدد ناسه باستمرار · والطوائف التي تأتي تلوذ به هربا من الخوف والاضطهاد ، هي بطبيعة الحال ، بحسب منطق شيحا ، اقليات طائفية هربت من جور الاكثرية في بلدانها ، لهذا ، حين يقصد لبنان اللائذون به ، فانما يقصدون بقعة جغرافية من الارض ، ليس للطغيان الاكثري وجود فيها · ان لبنان ، عند شيحا ، يتشكل من مجموعة من الاقليات يحكمها الولاء الى الملاذ · ومن هذه الاقليات تنبثق صيغة من العيش والتبادل الثقافي والحرية ·

ولكن قد يسأل السائل ، كيف يستطيع لبنان ان يحتفظ بقيمه ومثله الخاصة المميزة له وهو لا يدين بالولاء لشعب ثابت على ارضه ؟ · قد يأتي الجواب على هذا السؤال من اطروحات شيحا التي تحاول التمييز بين لبنان والاوطان والامم الاخرى · ان للجغرافيا اللبنانية الفريدة روحا خاصة تحدد العادات والعلاقات والنوازع الانسانية الطبيعية واشكال الوعي والقيم ، هذا على صعيد الجغرافيا · اما على صعيد الاجتماع البشري ، فتبدو تجربة الاقليات المضطهدة في العيش عاملا على انشاء صيغة ديمقراطية هو جوهر العلاقات الاجتماعية بين الطوائف · وليس ادل على هذا التلازم بين الجغرافيا وصيغة التعايش من كتابات يوسف السودا الذي يقول في كتابه « تاريخ لبنان الحضاري » : « لقد هيأته الجيولوجية الفريدة لان يكون مركز التقاء الشعوب المظلومة المتعطشة الى الحرية بعيدا عن مرمى سهام البطش والاستبداد » ·

تلك الصيغة ، التي تشكل الخيط الناظم للاطروحات الاجتماعية كلها عند المنظرين اللبنانيين ، تصبح ، حين النظر الى اسفل ، الى العلاقات الاجتماعية بين اللبنانيين ، حلما يتفتت · في قرارة الذين يعتقدون بها ، تبقى الصيغة السحرية تعبيرا عن حنين الى وطن هو كالاوطان · اذ ان الجوانب التشريعية من الايديولوجية اللبنانية ، انبنت على الخوف من مضاعفات العلاقة بين الطوائف · في السحر ، تبدو الطوائف صانعة للحرية ، وفي الواقع والتشريع يبدو الخوف من الانفجار ملازما لصيرورة التعايش · هكذا استطاع الدستور اللبناني ان يبتكر تمثيلا سياسيا ينبع من الرغبة في المحافظة على كيانات الطوائف والخوف من صراعها في ما بينها في آن معا · وهكذا يصبح لبنان الملاذ لبنان النزاع حين النظر الى اسفل ·

هذا الواقع المرسوم بدءا من الخوف يشكل حالة مأساوية عند الكثير ممن يعلنون الولاء للبنان الصيغة · خاصة عند اولئك المتمسكين بالحلم التاريخي الذي يعطي لبنان دورا وشرعية وجود ، عند من يجدون ضرورة في انكفاء لبنان عن محيطه الجغرافي والبشري · ان الايديولوجيا التي صاغها شيحا والسودا بما يشبه الشعر ، تصبح الملاذ النفسي الذي يتطلب الوصول اليه شكلا من الاعلاء والارتفاع عما يجري على الارض · ويلاحظ من الكتابات التي صدرت في فترة الحرب ، سواء تلك التي صدرت عن الاحزاب اليمينية او عن المؤرخين والمفكرين اليمينيين ، ان هناك ترددا كبيرا بين سحر الصيغة اللبنانية وبين الاقرار بعجزها في آن معا · وفي نداء الشيخ بيار الجميل الى اللبنانيين الذي اصدرته